سلوة العاشق

سلوة العاشق

تأليف

عايض حمد القحطاني

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى – ذات السلاسل

1425 هـ – 2004 م

الطبعة الثانية – الدار العربية للعلوم

1428 هـ – 2007 م

ردمك 978-9953-87-254-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1 - 961+)
ص.ب: 5574 - 13 شوران – بيروت 2050 - 1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1 - 961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

«الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف

وما تناكر منها اختلف».

حديث شريف

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية 9
مقدمة 13
ماهية العشق 17
علامات العشق 23
مراحل العشق 32
الحب الأول 34
المصارحة 40
الحب من أول نظرة 49
الكتمان 51
الخيانة 54
الوفاء 64
الفراق 68
الوصال 73
ألم المقاومة! 76
العشق عند الطلبة 80
همسة في أذنِك حواءُ!! 86
لا تتنازل عن حقك في المشاهدة 90
هل يأتي الحب متأخراً 92
شهادة حق لحواء 100
هل يقتل الزواج الحب؟ 104
وقفة مع يوسف عليه السلام 108
عندما يتحدث العفاف 110
قدوة في الحب 116

الحب من طرف واحد 121
أدم وحواء وجهاً لوجه 126
الفتور في العشق 137
رسائل العشاق() 140
أسطورة المنديل 161
ميثاق العشق 162
جلسة نفسية مع الشعراء 164
كيف يقع الآخرون بحبك؟ 171
حدث وذكرى 175
إرشادات للعشاق 177
لا يخدعوكم! 180
خدعكم أيضاً نزار! 183
الحب والجنس 189
الأرقام في الحب تتكلم 193
عيد الحب 194
شرطة العفة 199
فاصل قصير مع ابن حزم وطوق الحمامة 202
الوقت المناسب للزواج المناسب 205
الغريب من قصص العشاق 207
جنون الحب 212
أنيس المحبين 218
مقامة العشق 220
دواء العشق 223
أروع قصة حب على الشبكة 229
ملكة الليل 235
مأثورات في الحب 237
المراجع 246

مقدمة الطبعة الثانية

مـن المـضحكات أن روائـي ألماني من أصل تشيكي حينما صـدرت أول روايـة لـه وسعد بها كثيراً اشترى منها عشر نسخ ووزعهـا فخـورا على أصدقائه وأقاربه وبعد بضعة أشهر اتصل بالناشـر يسأله عن توزيع كتاب الرواية فأجابه بأنه لم يوزع سوى عـدد 11 نـسخة مـنها النـسخ العشر التي اشتراها المؤلف، وإذا بالمؤلـف ينـشغل لفتـرة مـن الوقت بشيء واحد وهو أن يعرف شـخص القـارئ الوحـيد لـروايته وراح يسأل عنه في كل مكان دون أن ينجح في التوصل إليه!

عزيـزي العاشـق، أقـصد القـارىء، هذه هي الطبعة الثانية مـنقحة ومـزيدة مـن كتاب «سلوة العاشق» بعد صدور الطبعة الأولى في عـام 2004 لتـصحح مـا لم يستدرك في الطبعة السابقة، ومـا هذه إلا خطوة أخرى لتضع «سلوة العاشق» في موقع يليق بـه، ليـسجل حضوره بفاعلية ونشاط، ليوجب على من لم يقرأه ندما، وعلى من يقرأه حبّاً وتقديراً.

إن مـن أهـم عوامل الأمل التي تجعل الكاتب يكتب ويبدع وينـتج حـتى لو لم يجد رد فعل كان يتوقعه، هو أن يعلم أنه لا بد لجـيل مـن الأجـيال القادمة أن يقدر الإبداع والابتكار الذي يأتي بـه، ومـن الجميل أن تكتب كلمات وأنت تعرف أن شخصا ما بعد عشرات إن لم تكن مئات السنين، سيقرأ ما تكتب ويتساءل عن ظروف وأحوال الحياة المحيطة بك.

مـن قـصص الخـيال المؤثرة أن مجموعة من الضفادع كانت تقفـز مـسافرة بـين الغابـات لمـسافات بعـيدة، وفجـأة وقعـت ضـفدعتان في فوهة عميقة. تجمع جمهور الضفادع حول الفوهة، ولمـا رأوا مـدى عمقهـا صـاح جمهـور الـضفادع، بالضفدعتين اللـتين في الأسـفل أن حالـتهما ميـئوس مـنها وإنه لا فائدة من المحاولة.

تجاهلـتا الـضفدعتان تلك التعليقات، وحاولتا الخروج من تلـك الفـوهة بكـل مـا لـديهما من قوة وطاقة، واستمر جمهور الـضفادع بالـصياح بهما لكي تتوقفا عن المحاولة لأنهما ميتتان لا محالة.

أخـيراً انصاعت إحدى الضفدعتين لما كان يقوله الجمهور، وحـل بهـا الإرهـاق واعتراها اليأس، فسقطت إلى أسفل الفوهة متعـبة ميـتة. أما الضفدعة الأخرى فقد استمرت في القفز بكل قـوتها، واسـتمر جمهـور الضفادع في الصياح بها طالبين منها أن تضع حدا للألم وتستسلم لقضائها، ولكنها أخذت تقفز بشكل أسـرع وأقـوى حـتى وصـلت الى الحافة ومنها إلى الخارج وسط دهشة الجميع.

عـند ذلـك سـألها جمهـور الـضفادع: هـل كنت تسمعين صياحنا؟!

شرحت لهم الضفدعة أنها مصابة بصمم، لذلك كانت تظن وهـي في الفـوهة إنهم يشجعونها على إنجاز المهمة الخطيرة طوال الوقت!

بهـذه القـصة ذات المغـزى، لا يـسعني ألا أن أنحني احترامًا وتبجيلًا أمام كل كلمة تشجيع وموقف إطراء حصلت عليه بعد صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب.

في هـذه الطـبعة الثانية للكتاب تمت إضافة بعض الفصول أهدي لكم منها فصل «ملكة الليل» والسلام.

عايض حمد القحطاني

2007م

مقدمة

منذ أن بدأت مرحلة الدراسة الجامعية وأنا أريد أن أكتب يوماً من الأيام كتابا أضع فيه أحاديثي مع نفسي وخواطري على مشاهداتي. وكنت قد تمنيت أن أنجز ذلك الكتاب قبل أن أتخرج. لكن الظروف لم تأت على هواي وكان في ذلك خير. ففي أسبوع التخرج وقفت مع رجل حكيم أحادثه وأنهل من تجاربه، وأخبره عن تخرجي وفرحتي، وعن شوقي إلى إنجاز الكتاب الذي لم أختر موضوعه بعد، فبدأ بتوجيهي ووقفت أتأمله وما يقول وقد خط الشيب عارضيه والذكاء يشع من عينيه، وتابع يحدثني ويقول:

بني، هناك أمور لا يعرفها الإنسان حتى يتخرج وينهي دراسته، وهناك أشياء لا يحسها المرء حتى يتزوج وتكون له عائلة، وهناك خفايا لا تظهر له حتى يبلغ الأربعين. بني، كن عظيماً والزم معالي الأمور!

كان لتلك الكلمات وقع السوط على قلبي، ففيها أسرار وخفايا أحببت دائما أن اكتشفها، أسرار الحياة، أسرار العالمين، أسرار النفوس، كل ذلك استهواني وأخذ تفكيري.

ومع ذلك لم تزل فكرة الكتاب راسخة في قلبي وشغفي بالمطالعة يدفعني إلى ذلك حتى اهتديت إلى موضوع الحب والعشق الذي انطلقت شرارته من نظرة جعلتني أقرأ في هذا الموضوع جُلَّ مراجِعِه وأصنف فيه هذا العمل.

لأخـرجن مـن الدنيا وحبهم بـين الجـوانح لم يشعر به أحد

ولا يجنح بك تفكيرك:

لَعَمْـرُكَ ما أَهْوَيْتُ كفَّي لِريْبَة ولا حَمْلَتني نحو فاحشةٍ رِجْلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دَلَّني رأيي عليها ولا عقلي

واعلـم أني لم تـصبني مـصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتىً قبلي

ولست بماشٍ ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي

وليـسقط القلم إذا لم يفتح فكراً، أو يضمد جرحاً، أو يرقأ دمعـناً، أو يطهر قلبا، أو يكشف زيفا، أو يبني صرحا من الحب يسعد الإنسان في ظلاله.

الحب حرفان حاء ثم باء

تعبت في معانيها الأحباء!

هذا العمل الذي أريده أن يكون للسلطان بستان، وللعاشق سـلوان، وللمحـب صـديق، وللمهجـور نجـوة، وللنديم قهوة، وللناسي تذكرة، وللأعمى بصيرة، وللشاعر المجيد بيت القصيد، وللأديـب الماهـر مـثل سـائر، وللمحـدث قـصص، وللحاسد غصص، وللفقيه تنبيه.

وكما أن للحب شجون، فإن له شؤون، وكما له آهات فإن له متطلبات، ولا يخطر ببالك أن عندي لك الشفاء، تلتمس مني الدواء لأن:

كـل داء لـه دواء، وداء الحـبْـ ـــبِ يـا صـاحبي داء دفـين

ففـي كتابي هذا سترى أنني أمدح العشق ثم أذمه، وأعطيك ترياقه وهو يا صاحبي سمه!

في هذا العمل ستجد حدائق ذات بهجة، ستجد فيه نكاتاً رائقـة، وأبياتاً فائقة. ستجد شموعاً تحترق وشموعاً تتقد، أطوف بـك فيه شتى البلدان ومختلف الأزمان، أحدثك فيه عن القديم وعـن الحـديث، عـن حـب العربي وحب الأعجمي. سأتحدث وأثـير في نفسك مثل ما يثار في نفسي، نعيش معا لحظات من الـتعاطف والتـناغم والمشاركة الوجدانية، نجعل في عملنا هذا للمحـب الحـزين إمـتاعاً ومؤانـسة، وتوجـيهاً بأسـلوب غير مباشر.

اعلم أنه لم يشرع أحد في التأليف عن الحب أو العشق، إلا وهو ينفس في كلماته عن واقع عايشه، وهوىً مكبوت قد كتمه. ويطمـح إلى اكتـساب أعظـم قـدر مـن القـراء إذ يعرف ما لهذا الحدث من سحر جذاب وبهاء خلاب.

فكـم مـن صـاحب مكتـبة سألته عما يملكه من كتب في هـذا الموضـوع إلا أجـابني بعـد تنهـيدة قـصيرة إنها في الرف الفلاني!

وإذا صـادفتك كلمـة الحـب في هذا العمل فاعلم أنه حب الروح وهو العشق، فلا تختلط عليك المفاهيم فأنت في حَيرة من أمر العشق بما فيه الكفاية!

خـذها هكذا تجري على قدر لا تفـسدها برأي منك ناقص

فـلا تتعب نفسك في المصطلحات فستتضح لك الأمور،

فهيـئ نفـسك الآن، واعـتدل في جلـستك، فأنت على وَشْكِ قـراءة أحـرف مـن ذهب، وتجارب آخرين ربما تعيشها في أي لحظة!

ماهية العشق

منذ بدأ الإنسان بتعلم اللغة ونطق بالأحرف، كانت الأحرف تعبر عن شعور ينطلق من إحساس داخلي ورد فعل لعامل خارجي. ثم جُمعت الأحرف ووضعت في كلمات. وتطور النطق واجتهدت البشرية بتوفيق من الخالق سبحانه، سواء عن طريق الأنبياء أو غيرهم، وأصبحت اللغات كثيرة والعلوم بها قطعت الشوط الكبير. من ذلك المنطلق، كان لبعض الكلمات في اللغة العربية مدلول حسي يصف الحالة النفسية للمتفوه بالكلمة.

فلو تساءلنا: لماذا اختارت العرب كلمة الحب أو «حب» لتعبر عن حال المحب؟ أعني لماذا حرف الحاء والباء؟ بعد التأمل في هذين الحرفين ومخارجهما، يتبين أن حرف الحاء يخرج من لب القلب «حا... حا» مرورا بالحنجرة ثم ينتهي بالشفتين مغلقتين «ب.. ب» ليعبر عن الحالة التي يعيشها المحب من الهيام والوله «حب... حب».

الحب... ذلك الحدث الذي يدهش الإنسان حقّاً ويجعله يتغير بمجرد وقوعه فيه. والحب كلمة عامة وهو نوعان: حب العقل وحب الروح. أما حب العقل فهو أن يحب الإنسان الله سبحانه وتعالى، ورسوله ﷺ، ثم أهله وأصحابه وخلانه وغيرهم. وأما حبُّ الروح فيندرج تحته العشق، وهو موضوعنا. وكما قال الجاحظ: كل عشق يسمى حبّاً وليس كل حب يسمى

عـشقاً. وقـد سـئل أحد الحكماء عن عاشق غشي عليه لما رأى معـشوقته: مـاذا أصابه؟ فقال الحكيم: نظر إلى من يحب فانفرج قلـبُه فتحـرك الجسمُ لانفراج القلب. فقيل له: نحن نحب أهالينا ولا يصيبنا ذلك؟!

فقال الحكيم: تلك محبة العقل، وهذه محبة الروح.

والكـلام عـن العاشـق كـلام شائق، لهذا قَسَّم الأولون الحب إلى مـراتب كـثيرة، مـنها: العلاقـة ثم الصبابة ثم الغرام ثم العشق ثم الجـوى والـصبوة والـصبابة والشغف والوجد والشوق والخلابة واللـوعة والفـتون والجـنون والود والخلة والغرام والهيام والوله، وآخـر ذلـك: التتـيم، وهو التعبد - والعياذ بالله - للمعشوق، فيـصير العاشـق عـبداً لمعـشوقه، وهـذا هـو المحرم الذي يُدخل صاحبه في الشرك.

والفـرد منا لا بد أن يمر بنوع من الحب بالمعنى الشمولي له. يقـول ابـن القـيم الجـوزية: للعاشـق ثلاثة مقامات، مقام ابتداء وتوسط وانتهاء. أما مقام الابتداء فالواجب عليه مدافعتُه بكل ما يقـدر علـيه إذا كـان الوصول إلى معشوقه متعذراً قدراً وشرعاً. فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا الوصول إلى محبوبه - وهذا مقام التوسط والانتهاء معاً - فعليه كتمانُ ذلك وألا يفشيه إلى الخلق ولا يـشمت بمحـبوبه ولا يهتكه بين الناس حتى يقضي الله أمرا كان مفعولاً.

فالـرجل والمرأة أي منهما، لن يعرف الحب، إذا آثر المادة علـى القلـب، والمـصلحة على العاطفة، والشهوة على ضبط الـنفس والإخـلاص والـوفاء لإنـسان واحـد عزيـز ومخـتار.

وكـلَّ مَـن يحـب شخـصا لماله أو جاهه أو لمصلحة ما، فإنه لم يعـرف بعـدُ معـنى الحب. لأن الحب الحقيقي هو حبُّ الآخر لذاته!

والدلـيل علـى ذلك، أنك ترى الفتاة الجميلة عندما تقع في الحـب فإنها تجعل من محبوبها ملاكاً، حتى وإن كان شخصاً عادياً. فهاهي إحدى شخصيات رواية «مرتفعات وذرنج» تقول: «إنني لأهـوى الأرض الـتي يدوسها بقدميه والهواء الذي يتنسمه، وكل مـا تلمـسه يـداه، وكـل ما تنطق به شفتاه، أجل إنني أهوى كل نظـراته وكل حركاته، وأنا أحبه بأكمله حبّاً جمّاً، حباً كاملاً غير منقوص».

وربمـا كـان الحب اخطر حدث في حياة الإنسان؛ لأنه ما أن نجـربه ونقع في شراك العشق حتى نشعر بأن العالم نفسه قد تغير من حولنا، هذا إن لم نشعر أننا نحن أنفسنا قد تغيرنا.

نعـم، أنـا أتحدث عن تلكم القشعريرة المقدسة التي تستولي على قلب الإنسان حين يلتقي لأول مرة بتلك الذات التي سوف تنتـزع مـنه خـصوصيته ويحـدث الائـتلاف في أسمى صورة عند الزواج.

فمـن مـنا لا يذكـر الـتأثير والوقع العميق لتجربة التلاقي لأول مـرة، وكـيف جـاءت تجـربته الأولى في الحب فأحس كأنما استيقظ من سبات عميق ورأى العالم كأنما ولد من جديد.

يقـول ابـن حـزم عن الحب: «دقت معانيه لجلالتها عن أن توصـف، فـلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل».

أنـا أتكلـم عـن تلك العاطفة الإنسانية التي تنقدح شرارتها بمجـرد الـتقاء الذكر بالأنثى. فينشأ بعدها إما علاقة ووصال، أو حدث وفراق.

يقـول عـنه ثمامـة في مجلـس المأمون: «العشق جليس ممتع، وأليف مؤنس، وصاحب ملك مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامـه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعـيون ونواظـرها، والعقـول وآراءهـا، وأعطي عنان طاعتها، وقـوّد تـصرفها، تـوارى عن الأبصار مدخله، وعمى في القلوب مسلكه».

ويـزيد علـى ذلـك الأصـمعي: «إذا تقادحـت الأخـلاق المتـشاكلة، وتمازجـت الأرواح المتـشابهة، ألهـبت لمح نور ساطع، يستـضيء بـه العقـل، وتهتـز لإشراقه طباع الحياة، ويتصور من ذلـك الـنور خلـق خـاص بالـنفس، متصل بجوهريتها، يسمي العشق».

الحب لا يأتي من فراغ. إنه نتيجة لتحول جذري من مجرد الشعور بالذات إلى الشعور بالجماعة. حينما يندمج الشريكان في نفـس واحـدة، تـتغير نظـرتهما للحـياة مـن حـولهما، وبـدلا مـن مجـرد محاولـة التقرب من بعضهما البعض، فهما ينـسجان خـيوط حـياتهما سـوية ليخلقوا منها نسيجاً واحداً متجانساً.

يقـول عنه أحد الأعراب: الحب خفي أن يُرى، وجلي أن يخفـى، كـامن كمـون الـنار في الحجـر، إن قدحته أورى، وإن تركته توارى.

وتجيب العجوز الحكيمة في رواية «ممو زين» – للشاب تاج الـدين تصف له الحب – : «هو مرض يا بني، لا أذاقك الله إياه، يسرى من الألحاظ ويسلك طريقه في الألحاظ... ثم يتخذ مستقره في القلـوب، هو في أول أمره رعدة في المشاعر، ودقات بين ألواح الصدر، وتلون ملامح الوجه.

فـإذا نمـا وترعـرع فهـو بـرق يـستعر وميضه في الأحشاء، تتلظـى الجوانح بناره من غير لهب، ويشوى الفؤاد في وهجه من غـير جمـر، فـإذا استقر وتمكن فهو نهش وفتك لسويداء القلب، يجرحه بلا مبضع، ويمزعه من غير سنان.

فهناك يشحب دمه منهمرا من العينين، ويذوب الجسم بين بـوتقة الحـشا وزفـرات الـصدر، وهـناك لا يغـني الطبـيب ولا عقـاقيره، ولا يجـدي سـوى أن تتـضام الـروح وتطفـأ النار ببرد الوصال».

عـندما يلتقـي شـاب وفـتاة لأول مرة دون سابق معرفة أو مـوعد كما قد يحدث لكثير منا الآن، ويشعر كل منهما أن هناك حواجـز عظـيمة قـد تحطمـت مـن أمامهما، ويشعر كل منهما بانجذاب رهيب نحو الآخر، ويحس كل منهما بأنه خلق للآخر.

هـذه اللحظـة المدهشة، إنها لحظة من أسعد اللحظات، إنها أكبر حدث في حياة كل منهما، إن معنى هذه اللحظة يكاد يكون معجـزة يـصعب تـصديقها، وخـصوصاً بالنسبة للإنسان الذي عـاش وحـيداً محـروماً مـن الحـب، لا أعلم إن كنتَ قد جربتَ لحظـاتٍ كـتلك أم لا، لكـن أعـرف أنـني أحـدثك عن مشاعر حقيقـيةً تعيـشها كخـيال، حـدث تعيـشه وكأنـك بدأت حياة

جديدة، إحساس مختلف، الحياة من حولك ربيع مكسو بالزهور والفـراش، الـتحاق بقافلـة العـشاق وكـأنهم لم يغادروا ينتظرون مجيـئك، تـشعر انـك تطـير والآخـرون مـن حـولك يمـشون، مغناطيسية لذيذة في اتجاه شخص جديد في حياتك، اندفاع روح إلى روح، تشعر أنك تحيا بالفعل، وأنك إنسان فيه غموض يحيط بكينونـته يعـد أحـد أسـرار عظمـته وروعـته، يقـبل كالأسـد وينصرف كالحمل، في ساعاته أجنحة وفي فراقه مخالب.

جاءت تسائلني؟ لو وصفت لنا الهوى
لعل الذي لا يعرف الهوى يعرف
فقلت لها يائسا وقد ذقته
والله ما أدري كيف الهوى يوصف

علامات العشق

العشق يأتي من إدمان النظر وكثرة المخالطة وطول الحديث. لذلك قال الشاعر يلوم عينيه على ما أورداه في العشق:

تمتعتما يا مقلتَّي بنظرةٍ وأوردتما قلبي أمرّ الموارد

أعينيّ كفا عن فؤادي فإنه من الظلم سعيُ اثنين في قتل واحد

أول الحب عند الرجل الحياء، وأوله عند المرأة الجرأة، وعلامات العشق كثيرة تكلم عنها الأولون كثيراً، لكن يبدو أن أحسن من وصف علامات الحب والعشق هو ابن حزم في طَوْقِ الحمامة عندما قال: إن إدمان النظر هو أول علامات الحب، ثم الإقبال بالحديث مع المحبوب. ومحادثات الهاتف والمقابلات ذات الطابع السري تندرج تحت ما قاله ابن حزم في الإقبال بالحديث مع المحبوب.

ثم يواصل ابن حزم الأندلسي الحديث ويقول: إن من علامات الحب أيضاً الإسراع إلى السير نحو المكان الذي يكون فيه المحبوب، وتعمد الدنو منه، وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة. والاضطراب عند سماع اسمه فجأة. والميل إلى الوحدة والأنس بالانفراد. فضلا عن السهر ونحول الجسم والقلق.

وعني خذ:

- إذا أصبحت كثير التثاؤب والتمطي والسرحان... فأنت عاشق.

- إذا أصبحت ترسم صورة من رأيت في محاضراتك واجتماعاتك وأوقات أعمالك ثم تبدأ بالتحدث مع نفسك... فأنت عاشق.
- إذا أصبحت تحب الليل والسهر والقمر... فأنت عاشق.
- إذا أصبح الورد والبريد والهاتف أمور مهمة بالنسبة لك... فأنت عاشق.
- إذا أصبحت تميل إلى العزلة وتحب الانفراد بنفسك... فأنت عاشق.
- إذا أصبحت تحس بخفقان قلبك عند سماع رنة الهاتف، وتشعر أنه يرن وهو لا يرن... فأنت عاشق.
- إذا أصبحت تطيل الوقوف أمام المرآة... فأنت عاشق.
- إذا أصبحت تهتم بجمال هندامك بشكل ملحوظ... فأنت عاشق.
- إذا أصبحت تسهر الليالي وتعد الساعات بعد أن كنت تنام بعد العشاء... فأنت عاشق.
- إذا أصبحت تهتم بالشعر والنوادر ومستظرف الكلام بعد أن كنت تهتم بدروسك وعملك... فأنت عاشق.
- إذا كنت تبتسم أحيانا من غير سبب... فأنت عاشق.
- عندما يكون الصمت جزءا من حديثك... فأنت عاشق.
- إذا شعرت فجأة بتغير حياتك، ومن نظرة أن قلبك يكاد يخرج من ضلوعك... فأنت عاشق.

عـندما تقع في الحب، تشعر بتغير ما يحدث بداخلك، شيئا يقلـب كيانك، يقلق نومك، يذهلك، هاجس لطيف، يجلب لك صـورة الإنـسان الـذي رأيـت ماثلـة أمامك، تشعر بحالة تقلب شـديدة مـن الـرقة، خفقـان في القلب، تركيزك لم يعد كسابقه، حـياتك طرأ عليها شيء جديد. تصبح كل الاهتمامات الأخرى ضـئيلة أمـام رؤيـة المحبوب والتواجد معه، أيّاً كان عمرك تشعر أنك طفل ومراهق.

والحبـيب يعـرف حبيبه من نظراته، والعشق ليس سيئة أو آفة بذاته بل بالعكس فإن له فوائد ومنافع، منها أنه يرقق الطبع، ويعـين علـى فعـل مكـارم الأخلاق، وقيل: إن العشق داء أفئدة الكـرام. ولاحـظ أن العـشق الـصحيح لا يصلح إلا لذي مروءة طاهرة، وخليقة ظاهرة، أو لذي لسان فاضل، وإحسان كامل، أو لـذي أدب رفـيع يحـبه الـناس ويألفوه. وقد يصفي العشق ذهن الغبي ويسخي كف البخيل!

يقـول ابـن حزم: ومن الحب ما يغير ما بالنفوس من طبائع طـبعت علـى القلـوب، فكـم مـن بخـيل جاد، وجبان تشجع، وغلـيظ طـبع تطـرب، وجاهـل تـأدب، وفقير تجمل، وكبير في السن تصابى.

والعـشق الـذي نأمـل أن يفهـم من حديثنا هنا هو العشق العفـيف مـن الـرجل الظـريف والفـتاة المتعففة الذين يأبى لهما إيمانهما ودينهما وعفتهما ومروءتهما أن يفسدا ما بينهما وبين الله بالحـرام. لـيس بعـشق اللاهـين بالحـب والعابثين فيه. بل ذلك العشق الذي انطفأ وهجه مع صخب هذه الحياة.

وأشرفُ الناسِ أهلُ الحبِّ منزلةً وأشرفُ الحبِّ ما عَفَّتْ سَرائرُهُ

ومعظم العشاق ليسوا بأصحاب تقوى وهذا ملاحظ ومشاهد. يؤيد ذلك ما قيل: إن رجلا كتب لعشيقته رقعة، قال في أولها: عصمنا الله وإياك بالتقوى. فكتبت إليه في الجواب: يا غليظ الطبع، إن استجاب الله دعاءك لم نلتق أبداً!

لكن قد يبتلى المرء فلا يصبر، والنفوس البشرية دائمة التعرض للحب، ولا سبيل لها لرد ما قدره الله لها من عاطفة، وبعض تلك العواطف تخمد كما يخمد لهب القش، وبعض تلك العواطف تبقى خالدة متوهجة.

يلومونني في حُبِّ سلمى كأنما يرون الهوى شيئاً تيممته عمدا

ألا إنما الحُبُّ الذي صدّع الحشا ضاءٌ من الرحمن يبلو به العبدا

وقد شكا جحافل الفرسان من العشق وتداعياته مع ما هم فيه من علو الهمة وصلابة الجأش. وكما أن للعشق محاسن فإن له مساوئ أيضاً. فهو ينقص من علو الهمة؛ لأن صاحبه يحصر همته في الظفر بمعشوقه، فيلهيه عن حب ما هو أهم منه.

لذلك قال ابن القيم الجوزية في ذلك: «إن عالي الهمة لا يستأسر للعشق الذي يمنع القرار، ويسلب المنام، ويوله العقل، ويحدث الجنون، وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله ونفسه وعرضه، وأتلف دينه ودنياه. والعشق يترك الملك مملوكًا، والسلطان عبدًا، ترى الداخل فيه يتمنى منه الخلاص، ولات

حين مناص، وكم أكبت فتنة العشق رؤوسا على مناخرها في الجحيم»[1].

والعشق لا يمنع أصحاب النفوس العزيزة من التقدم يوم الزحف، ذكر أنه في حروب المسلمين مع الروم لما وقف الجيشان برز فحل من الروم فقتل سبعة من مبارزي المسلمين ثم جعل يجر رمحه ويطلب البراز، فلا يبرز له أحد، فلما طال ذلك على المسلمين وخافوا الهزيمة برز غلامٌ وضيءُ الوجه ظاهرُ الجمال له ذؤابتان من ورائه، فبارز ذلك الفحلَ فقتله، ثم ابتدر إليه عشرةٌ من فرسان الروم فقتلهم، ورد جيشُ المسلمين الرومَ منهزمين.

وعندما أقبل الناس على الغنائم ارتقى الغلام رابية ونزل عن فرسه وأخذت دموعه تنحدر على الأرض كالقطر. يقول الراوي: فنزلت عن فرسي وذهبت إليه فقلت: يا بني، قد أبلى الله تعالى على يدك هذا البلاء للإسلام وأهله، ألا أراك تتعرض لشيء من الغنائم وأنت من البكاء على هذه الحالة، فأعلمني قصتك، فأطرق ساعة ثم انشأ يقول:

أنا في أمري رشاد بين غزو وجهاد
بدني يغزو عدوي والهوى يغزو فؤادي

ثم مضى ولا أعرف اسمه ولا نسبه[2].

---

(1) انظر: «روضة المحبين» (ص 182 ـ 190).

(2) ذم الهوى (494).

هكـذا قد يبتلى المرء بالعشق فعليه أن يصبر حتى يبلغه الله مراده.

والعـشق لا يـستعجل علـيه بالـذم والإنكـار، ولا بالمـدح والقـبول، مـن حـيث الجملـة. فقـد يتمالك العاشق نفسه بعد ضـياع أملـه في الوصـول إلى معشوقه، فيتجلد للصدمة العنيفة الـتي حلـت بـه، ويطـوي صدره على جراحه، ويطفئ النار التي تـتوهج في فـؤاده، حتى تخف اللوعة وتضمحل الحسرات، فيأتي الأجل المكتوب والله لا يضيّع أحداً.

ولقـد كـان الـشرف عـند الأوائـل فوق الحب، والذود عن العـرض فـوق الحـياة. فلـو قرأت من أقاصيص الحب في صدر الإسـلام لـسمعتَ عجـباً عن الحب والشرف بين بنات العرب وفتـيانها. ذلك أنه كان البعض منهم يذبل من فرط الهوى ويموت ثم لا يـبوح باسم من يهوى خشية أن يصيبه أذى من أهله أو أن يذكر من يهوى بسوء بعده.

قرأت أن حكماء الهند يقولون ما علق العشق بأحد فينا إلا وعزينا أهله فيه.

وفي «ذم الهـوى» أن بعـض الفلاسـفة قال: لم أر حقّاً أشبه بـباطل، ولا بـاطلا أشبه بحق من العشق، هزله جد وجده هزل، وأوله لعب وآخره عطب.

وربمـا كـان هذا هو المعنى الذي أراد الشاعر الهندي الشهير طاغـورُ التعـبيرَ عنه حينما قال في قصيدة له «آه أيها الحب! ألا تحـررني من وشائج عذوبتك؟ إنني لم أعد أرغب في نبيذ قبلاتك!

وهـذا الدخان المتصاعد من بخورك الكثيف قد أصبح يخنق قلبي. ألا ليـتك تفـتح أبـوابك المغلقـة، لكـي تدع أضواء النهار تنفذ إلى... إنـني ضـائع فيك، أسير بين قيود حنانك ورقتك، فحررني مـن سـحرك، ورد إلي الـشجاعة، حـتى أقـدم لـك قلـبي طليقاً متحرراً[1].

ويخطـئ الـبعض الذي يظن أن العشق لا يحدث إلا لحسان الوجـوه. أبداً، فإن العشق أمر يضعه الله في قلب ابن آدم تحصل بـه الألفـة قـال الله تعـالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًـا لِتَـسْكُنُوا إِلَـيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّـرُونَ﴾. والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. ويرى علماء النفس المعاصرون: أن الحب يقوم على «التوافق» و«المشاكلة» وليس على الجمال. أي على طريقة «الطيور على أشكالها تقع».

وما الحب من حسن ولا من سماحة ولكـنه شيء به الروح تكلف

فهـذا خلـيل الـرحمن وإمـام الحـنفاء شـيخ التوحيد سيدنا إبراهيم عليه السلام عنده سارة من أجمل نساء العالمين ومع ذلك أحب هاجـر وتـسرى بها. ولا يوجد هناك امرأة قبيحة أو رجل دميم، إنمـا تـوجد امرأة لا تعرف كيف تجذب الرجل، ورجل لا يعرف كيف يشد المرأة!

وفـدت بثينةُ صاحبةُ جميلٍ على عبد الملك بن مروان، فقال لها: ما رَأَى جميلٌ فيك حين لهج بذكرك بين النساء كلهن؟ قالت:

(1) مشكلة الحب (ص 219).

الـذي رأى فـيك الـناسُ حـتى جعلـوك خلـيفةً مـن بين رجال العـالمين! فـضحك حتى بدت له سنٌّ سوداءُ كان يخفيها، وأجزل جائزتها وقضى حاجتها.

لي صـديق فـيه من الجمال قليلا من الشيء، يحدثني ويقول: هل تعتقد أن من النساء من ستفتن بي أو تميل إلي يوما؟!

فقلت له ممازحا: مع غلاظة طبعك، لا أعتقد ذلك!

فقـال: والـذي لا إلـه إلا هو لقد رأيتني وفتاة تترجى في أن أكـون لهـا عشيق وأنا آبى لها ذلك، وأستحلفها ألا تكرر طلبها. بـل ليـتك رأيـتني عـندما أعلـنت فـتاة أخرى يأسها مني بعدما زَهَّـدتُها بنفـسي، وشـرحت لهـا مفهوم الحب وخطورته وأني لا أريد تعذيبها معي في لجج الهوى.

احتـرمت صـديقي بعـد ذلـك وذهـبت أستشيره في أمور الحب والغرام لسعة اطلاعه وثقافته، مع ما به من طبع غليظ!

من أجمل ما قرأت عن تفاوت درجات الجمال بين المحبين أن شـابّاً في ألمانـيا يدعـى «مندلـسون» كـان قبـيح المنظر، ولم يكن كذلك فقط بل كان أحدبَ أيضاً منذ ولادته.

التقـى هـذا الـشاب في إحـدى المـرات بتاجر في هامبورغ وبـرفقة التاجـر ابنته الجميلة «فرومتي» فتعلّق مندلسون الشاب بالفـتاة ولكـن لم يجـرؤ أن يبوح لها بما في قلبه. فلمّا حانت لحظة الفـراق بعـد أن عـزمت على الرحيل لم يجد نفسه إلا أمام غرفة فـرومتي بكـل جـرأة وهـو يحدثها، وعرض عليها الزواج فأبت ذلك دون تردّد، وأعرضت بوجهها عنه، وعلى وجهها علاماتٌ

استغراب واضحةٌ على جرأةِ شاب قبيحٍ أحدبَ يطلب يد فتاة جميلة ذات منزلة اجتماعية.

عندما شاهد مندلسون كل ذلك بادر الفتاة «فرومتي» بالسؤال:

هل تؤمنين بأن عقد اقتران إنسان بآخر قد أبرم في الجنان قبل ولادتهما؟

قالت فرومتي – بتثاقل واستنكاف – : نعم، أعتقد ذلك! لتؤكد استنكارها لجرأته في طلبه إياها.

قال مندلسون: أنا أيضاً أعتقد ذلك.. وأتذكّر أنني عندما ولدت في الجنة جاء ملك الزواج وقال من هي الفتاة التي ترغب في الاقتران بهذا الشاب الجميل فرفعت إحدى الفتيات يدها فقال لها ملك الزواج: أنّى لبنت قبيحة وحدباء مثلك أن تتزوج من شاب جميل ووسيم مثله.

فسكتت الفتاة وأطرقت رأسها خجلة.

يقول مندلسون: لم أطق ذلك المشهد في الجنة فقلت لملك الزواج أنا مستعد لأمنح جمالي وحيويتي لهذه الفتاة وآخذ منها شكلها القبيح وحدبتها حتى آخر لحظة من عمري حتى لا تكون بعد هذه اللحظة خجلة أمام أحد..!!!

عندما سمعت «فرومتي» هذه القصة من ذلك الشاب، رفعت عينيها إليه وتأملت في شكله فرأت أمامها شاباً رقيقاً وملائكياً رغم كل ما كان يعتريه من قبح في المظهر والشكل فوافقت على الزواج منه!

مراحل العشق

العشق أول ما يبدأ بنظرة إعجاب كالشرارة تنطلق بين شخصين، إعجاب بشخص نشعر بالانجذاب إليه، تخفق قلوبنا بشدة له، وترتعد أجسادنا، ويبدأ خيالنا بالجموح، ونشعر أننا مشدودون بقوة لهذا الكائن الذي يقف أمامنا.

ثم تأتي مرحلة الارتباط، عندما يتحدث الشخصين إلى بعضهم البعض ويرى كل منهما الآخر عن قرب. ولكل شخصين مرتبطين حكاية عن اللقاء الأول. الشعور الغالب في هذه المرحلة أنهما تقابلا في مكان ما وأنهما يعرفان بعضهما البعض ويشعر كل منهما بالراحة نحو الآخر.

ثم تأتي مرحلة المكاشفة، يقضي فيها العشاق ساعات طوال في الحديث خفية وبغير خفية، تكون مصحوبة ببوح لكثير من أسرار الطفولة والأحلام والوضع الاجتماعي لكلا الطرفين. بالإضافة إلى سرد سريع لحياة كل الأطراف وتسقط هنا الحواجز شيئا فشيئا. تعد هذه المرحلة أولى لمسات الشاعرية في العلاقة.

ثم تأتي مرحلة التقييم، فيها يحدد الأطراف ما إذا كان الطرف الآخر هو الشخص المناسب أم لا، يبدأ في هذه المرحلة نداء العقل في التغلب على الرومانسية المتلاطمة، ويوضع المستقبل في الحسبان، قد تنتهي العلاقة هنا لكثير من الناس، وقد تستمر للبعض الآخر.

إذا استمرت العلاقة، تأتي هنا الألفة، وذلك حين تذوب كلمة «أنا» وتظهر على السطح كلمة «نحن». تتوطد العلاقة في هذه المرحلة بشكل عميق، لدرجة ألا يكون هناك حاجة إلى الحديث والاثنان معا، مجرد دقات قلب وإيقاع أنفاس وأريحية متناهية.

تتوج تلك المراحل السابقة بمرحلة الالتزام. وهو الرباط المقدس الرباني الذي هو سر الوجود وبقاء النسل «الزواج» اللبنة الأولى في بناء صرح الوجود، والرمز لاستمرار الحياة، هو الذي سيرقى بالجميع إلى ممالك الحب العليا، والعاقل الذي لا يؤمن بالحب من أجل الحب، ولكن يؤمن بالحب كمقدمة للزواج.

واستمرار العلاقة إلى الأبد ليست شيئا ثابتا، وإنما هي مثل المصباح الذي يفقد وميضه الأول، هي بالأحرى مصباح يحتاج فقط لتلميع خارجي، حتى يعود إلى شكله الجميل متى ما اعتراه غبار أو منغص خارجي، أما ترك العلاقة هكذا دون أدنى مجهود لتجديدها وإحيائها من جديد، فيعد ذلك خطأً فادحاً تذبل العلاقة بسببه فينطفئ نورها وتنذر بوقوع الفراق.